

## الدراسات البلاغية العربية القديمة لبلاغة الجاحظ

## ابن قتيبة أنموذجا

The ancient Arabic rhetorical studies of the rhetoric of Al-Jahiz,  
Ibn Qutayba as a model

كحلي رايح (1)

جامعة تيسمسيلت (الجزائر)

Kahli.rabah@univ-tissemsilt.dz

تاريخ القبول: 2022/03/24

تاريخ الإرسال: 2022/02/26

## ملخص:

كان المنهج المتبع في هذه الدراسة يتراوح بين التحليلي التاريخي، وقد توصلنا في النهاية إلى أن ابن قتيبة يعتبر أبرز قارئ للمدونة الجاحظية بناء على المعيار الأخلاقي المتحكم في حكمه على هذه البلاغة، كما أن الجاحظ وابن قتيبة يلتقيان أدبيا ويفترقان عقائديا، كما كان الأدب ارتقى بفعل قراءة ابن قتيبة التي تعتبر من أهم القراءات التي سارت في هذا الاتجاه.

نتغيا في هذا المقال التطرق لقراءة ابن قتيبة العالم والديب السني لبلاغة الجاحظ، بدايةً كان هدفنا من هذه الدراسة كشف هذه البلاغة، ونحاول النباش في كيفية تلقيه لهذه البلاغة، التي قيل حولها الكثير - بين مرحب بها وبين طاعن فيها-، فقد تحكمت في هذه القراءات تصوّرات مختلفة مرتبطة بالإيديولوجيا والتاريخ، وفق أفق وسياق ثقافي كان لصيقاً بها دائماً.

## كلمات مفتاحية:

البلاغة، الجاحظ، ابن قتيبة، القراءة، الأدب.

---

---

**Abstract:**

In this article, we intend to address Ibn Qutayba's reading of the rhetoric of Al-Jahiz, the scholar and the Sunni scholar. Various perceptions related to ideology and history, according to a horizon and prominent reader of the Al-Jahiziyah blog based on the ethical criterion that controls his judgment on this rhetoric, and that Al-Jahiz and Ibn Qutayba meet literary and ideologically separate, as

a cultural context with which it has always been closely related.

The method used in this study ranged from historical analysis, and we concluded in the end that Ibn Qutayba is considered the most literature was elevated by doing The reading of Ibn Qutayba, which is considered one of the most important readings that moved in this direction.

**Keywords:**

rhetoric; Al-Jahiz ; Ibn Qutayba ; literary ; reading

### مقدمة:

في هذا المقال نتطرق لقراءة القدماء لبلاغة، من ابن قتيبة إلى التوحيدي، والجرجاني، والهمداني، وغيرهم من الذين تداولوا قراءةً على بلاغة أبي عثمان، بدايةً لم يكن هدفنا من هذه الدراسة كشف عدد الذين تداولوا على هذه البلاغة، لأنّ هذا قد طرقته أيادي البحث قبلنا، بل كان اهتمامنا موجهاً إلى استكشاف تفاصيل هذه القراءات التي تناولت هذه المدونة وجزئياتها، نحاول النبش في كيفية تلقي القدماء لهذه البلاغة، التي قيل حولها الكثير -بين مرحب بها وبين طاعن فيها- فقد تحكّمت في هذه القراءات تصوّرات مختلفة مرتبطة بالإيديولوجيا والتاريخ، وفق أفق وسياق ثقافي كان دائماً لصيقاً بها.

نحن نتحاور مع قراء للبلاغة العربية من خلال مشاريع كبرى سجلت حضورها مع (المدونة الجاحظية) سلباً وإيجاباً، في هذه الدراسة الممتدة في التاريخ الموعول في القدم، حتمت علينا أن ننجز بحثاً يتجاوب مع قامة الجاحظ في أدبه وبلاغته وموسوعيته، نحاول تصوير ماهية التلقي لهذه البلاغة المتناثرة في (البيان والتبيين)، ولا يعني هذا أننا نسير وفق نظرية التلقي بكل محاورها، لأنّ بحوثاً كثيرة درست بلاغة الجاحظ من بوابة هذه النظرية، مثل دراسة عبد الواحد التهامي في كتابه: (أنماط تلقي السرد في التراث النقدي، دراسة في أدب الجاحظ)، وأطروحة دكتوراه لمحمد عبد البشير مسالتي تحت عنوان: (الجاحظ في قراءات الدارسين المحدثين).

هذه البلاغة حكمت على نفسها بالنضج مع كل قراءة جديدة، لتعود في نهاية البحث متوهجة شامخة شموخ صاحبها، الذي كتبت له هذه المقروئية وهذا التفاعل الكبير من باحثين ودارسين ومحققين، وسنركّز على قراءة القدماء في هذا البحث.

كان عملنا في هذا الفصل فحصاً ومعاينةً لأنماط متعددة من القراءات التي أنجزت حول هذه البلاغة، وتحليلاً حيناً بعد حين، بدءاً من القراءات المبكرة في تراثنا، كقراءة ابن قتيبة التي كان لها النصيب الأكبر من هذا البحث، نظراً لجهوده في البلاغة والأدب والتأليف، ولحجم المقروئية التي تناولتها الدراسات الأكاديمية التي اهتمت بابن قتيبة، استفاد النقاد من قراءته للجاحظ وفق المعيار الأخلاقي، فقراءته تعتبر قراءة فنية ناضجة لبلاغة الجاحظ.

### إشكالية البحث.

جاءت التساؤلات كالتالي: هل تناولت قراءة ابن قتيبة ما جاء به أبي عثمان؟ وهل كانت تسير على نمط واحد؟ وما هو المنهج المتبع في هذه القراءة؟ أم أن الانتصار للإيديولوجيا كان وارداً فيها ومحركاً لها؟

### أهمية الدراسة.

تكمن أهمية الدراسة ابتداءً إلى قيمة بلاغة أبي عثمان الجاحظ، ودوره في إرساء معالم البلاغة العربية على وجه الخصوص، من هنا كانت قراءة ابن قتيبة اختيارنا في هذا البحث نظراً لأنه يمثل التيار السني معارضا الجاحظ الذي يمثل التيار الكلامي المعتزلي، فقراءته تعتبر فتحاً كبيراً لنثر الجاحظ خاصة مع استعماله المعيار الأخلاقي الذي استطاع به أن يفك رموز بلاغة أبي عثمان.

### وضع الفرضيات المناسبة.

افترضنا قبل الولوج إلى موضوعنا هذا أن عدة فرضيات قد توصلنا إلى ما نود البحث عنه في بلاغة الجاحظ، افترضنا ما يلي:

- أن ابن قتيبة كان بحق ناقداً بصيراً لأدب الجاحظ.
- افترضنا أنه لا يمكن عزل بلاغة الجاحظ عن قراءة ابن قتيبة.
- قراءة ابن قتيبة فتحت الباب للقراءات التي جاءت بعده.

### تحديد منهجية الدراسة.

لابد لأي عمل من منهجية تغذيه وتشرف على استمراريته في رواق لا يزيغ عنه الكاتب، ولهذا كان منهجنا مبسوطاً بين التحليل والتأريخ وهو الملائم لهذه الدراسة، التي تأرجحت بين الجاحظ وابن قتيبة في زمن غابريغلب عليه التأريخ التحقيقي حيناً بعد حين.

### 1. تقديم لقارئ بلاغة الجاحظ.

لقد تفاعل الكثير من القراء مع الجاحظ، منهم من أخذ بلاغته بالقبول، ومنهم من ردّها وعادها، وفي كل الأحوال يبقى الجاحظ ملهماً للكثير، بالنظر إلى ما قدّم لمؤلفاته من الدراسات والأطروحات، ولعل من أبرز من تداولوا على بلاغة الجاحظ نجد ابن قتيبة، والجرجاني والتوحيدي والهمداني، وابن وهب، ولعلنا نحاول بسط الحديث عن هؤلاء القراء محاولين لمّ شتات هذه القراءات، خاصة وأنها كانت ذات رؤى متباينة.

وهنا نحاول تسليط الأضواء على من تداولوا -قراءةً نقداً أو تركيزاً- على بلاغة الجاحظ من القدماء، حيث أن متلقي بلاغة الجاحظ انقسموا إلى ثلاثة أقسام: قسم أشاد ببلاغة الجاحظ وقوته الأدبية، وقسم وقف موقف الوسط، وقسم أظهر العداء للمدونة الجاحظية عموماً، ولكن يبقى غالبية هؤلاء القراء مجمعين على أنّ الجاحظ هو أديب العربية الأكبر، والبلاغي الأوحده، وبلاغته تعتبر من أرقى البلاغات، ولا زالت مثلاً يحتذى به في الصناعات الأدبية والبلاغية عند المتأخرين.

### 2. ابن قتيبة والمعيار الأخلاقي.

لقد كُتب للبلاغة العربية أن تنمو بين بلاغيين كبيرين، بين الجاحظ وابن قتيبة، بين زاويتي: المعتزلة والفقهاء بين: الجاحظ الأديب المتكلم، وبين ابن قتيبة الفقيه المفكر، جرت حرب خفية تولدت عبر مؤلفاتهم، والإيديولوجيا أجبرتهما على محاولة اكتساح بعضهم البعض حيناً بعد حين، وفي الوقت نفسه تعرضت المدونة الجاحظية لنقد شديد، من طرف ابن قتيبة، بحيث حاول التعليق على ما ورد فيها من سقطات أخلاقية، كأدب الفساق، واللصوص، والبخلاء، والحمقى، فازدانت البلاغة العربية بالرجلين وازدهرت بهما. ومن خلال الدراسة والبحث، والنماذج التي تم الحصول عليها، استطعنا أن نطرح مشكلة في بداية هذا البحث متسائلين: هل كانت تعليقات ابن قتيبة على بلاغة الجاحظ متحررة من الهاجس الإيديولوجي؟ وما هي دواعي هجوم ابن قتيبة عليه، وهل كانت قراءته قراءة محايدة؟ الغرض من هذا البحث هو:

- الكشف عن موقف ابن قتيبة من بلاغة الجاحظ.
- تسليط الضوء على الإيديولوجيا ودورها في إذكاء الروح النقدية لدى ابن قتيبة، وبروزها كذلك لدى الجاحظ.
- محاولة كشف حجم الصراع الحاد بين الجاحظ وابن قتيبة.

### 3. ابن قتيبة الشخص:

يعتبر ابن قتيبة (ت 276هـ) واحداً من الذين اعتنوا بالأدب وبالبلاغة إبان القرن الثالث الهجري، وهو بمثابة الجدار المتين الذي انعكست عليه خلافاتٌ وصراعاتٌ فكرية ومذهبية، فقد اهتم بالعلم منذ صغره، حيث درس الفارسية، وقرأ التوراة والإنجيل، وامتزجت لديه شتى الثقافات والمعارف، حتى أصبح رأساً في العربية، واللغة، والفقه، والتاريخ، وقد أجازته الجاحظ في بعض كتبه، «سخر ابن قتيبة رحمه الله لسانه وقلمه

للدفاع عن السنّة النبوية، ووقف كالطود الأشم أمام عقائد الفرق الضالة يذبّ عن عقيدة السلف أهل الحديث، وينفر من الفلسفة والكلام وأهله ويذمهما<sup>(1)</sup>، بل طالت حربه المتكلمين وغيرهم، هذا ما وُلد صراعاً مريباً بينه وبين الجاحظ، فانبرى له ولبلاغته يُقوّمها حيناً، وينتقدها أحياناً أخرى.

قيل فيه الكثير من طرف أهل السير والتراجم، وها هو شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: هو لأهل السنّة مثل الجاحظ للمعتزلة، فإنّه خطيب أهل السنّة، كما أنّ الجاحظ خطيب المعتزلة<sup>(2)</sup>، وفي مصنفاته نجد ردوداً قوية على كل من يخالف تعاليم الإسلام، ولولا موته المبكر لكان غزير الانتاج أكثر من الجاحظ، فقد عمّر نحواً من الستين عاماً، أمّا الجاحظ عمّر أكثر من التسعين عاماً، ومع ذلك كل ما يذكر الجاحظ يذكر معه ابن قتيبة.

#### 4. الجاحظ وابن قتيبة، تصادمٌ وتجاذب:

يمثل الجاحظ (ت 255هـ) الفكر الاعتزالي، صاحب المؤلفات الكثيرة، من أبرزها (البيان والتبيين)، (والحيوان)، وبعض الرسائل، و(نظم القرآن) الذي يخال المرء أنه كان يمكن أن يسد ثغرة في جملة التفكير البلاغي والنقدي عند أبي عثمان<sup>(3)</sup>، والانشغال ببلاغة وأدب الجاحظ هو أهم نسق فكري وثقافي أزرق ابن قتيبة، بل تفاعل معه بالرفض حيناً، وبالقبول أحياناً أخرى.

والجاحظ معلم العلم والأدب، لا يختلف فيه اثنان حول ما وصل إليه الرجل من غزارة أدبية حيّرت الدارسين، وإذا قلبت الطرف في أدب الجاحظ، فإنك واقعٌ منه على العجب العجاب، تهّم بإكباره، منشئاً ملهماً، فيقصرك التردد، إذ يطالعك بناء ضخّم لديه، من نقد وعلم ورواية ومنطق وفلسفة وموسوعية<sup>(4)</sup>.

والناظر في ما كُتب عن الرجلين، سيجد اسم ابن قتيبة مقروناً بالجاحظ خاصة في ميدان الأدب والبلاغة، والبلاغة - كما رأينا - هي مجال لانعكاس الثقافات بالرغم من تعددها، وتفريغها<sup>(5)</sup>.

وفي نفس السياق نجد جابر عصفور يشير إلى أن المعتزلة أصبحت الممثل الرسعي للخلافة، وهي في صراع دائم مع كل من يخالفها، ومن ذا الذي يستطيع «أن يفصل التضاد بين ابن قتيبة والجاحظ عن التضاد بين النقل والعقل»<sup>(6)</sup>، هي حربٌ فكرية لكسب المزيد من الانتصارات، وهو سجالٌ بينهما لأن كليهما له مقومات الريادة والقيادة العلمية والدعوية والخطابية والفقهية، والناظر في كتب التاريخ يرى أنه قد وقع صدامٌ

كبير، بين المعتزلة وأحمد بن حنبل في محنة امتحان الناس بخلق القرآن، وما تلاها من أحداث مؤلمة، استغل فيها المعتزلة قريتهم من الخليفة للانقضاض على خصومهم.

### 5. موقف ابن قتيبة من بلاغة الجاحظ:

كان ابن قتيبة من أوائل القراء الذين تناولوا بلاغة الجاحظ بجدية، حيث نجد محمد مشبال يؤكد هذا، ويرى أن ابن قتيبة هو الممهد لمن بعده من القراء الذين تعاقبوا على مؤلفات الجاحظ حيث يقول: «إن قراءة ابن قتيبة لنثر الجاحظ ستتحكم في كثير من القراءات اللاحقة وتوجهها، وإن لم نعدم قراءات مخالفة لها، مثل قراءة أبي حيان التوحيدي»<sup>(7)</sup>، فابن قتيبة كان من أشد القراء مخالفة لأسلوب الجاحظ، وهذا ما سنراه لاحقاً في هذا البحث.

وفي نفس السياق نستطيع أن نقول إن ارتباط المباحث البلاغة عند ابن قتيبة بالخلفية العقيدية التي ولدت لديه تصوراً مكتملاً، حيث جرّ البلاغة لما تقتضيه الخلفية الفكرية السنية على وجه الخصوص، بمعنى آخر هو «إسقاط الغرض العقدي الديني على الغرض الأدبي الجمالي، أي تحكم الفكر والعقيدة الدينية أو السياسية أو الحزبية... في إنتاج الخطاب وتدبيج الكلام وتحسين وبناء النص»<sup>8</sup>،<sup>0</sup>، هذا التصور لازم ابن قتيبة في كل مؤلفاته، وشكّل مضمراً حجاجياً، وموجهاً إيديولوجياً في الرد على المخالفين فيما بعد، وبرز هذا المضمير للعلن في المواجهة التي أعلنها على اعتراضات الطاعنين في القرآن والسنة.

### 5.1 تعارض عقدي وتواصل أدبي بين الجاحظ وابن قتيبة:

استطاع ابن قتيبة أن يثري الساحة وقتذاك بمؤلفات متنوعة وكثيرة، وأينما ذكر الجاحظ ذكر ابن قتيبة، وأضحى منافسا له، «فإذا كان ابن قتيبة والجاحظ قد اجتمعا على صُعد عديدة من الفكر والأدب، فقد افترقا في أخرى، كلاهما أُلّف في العقيدة والأدب، انطلاقاً من انتماء عقدي، فكر السنة عند ابن قتيبة وفكر المعتزلة عند الجاحظ، كلاهما أُلّف في القرآن والقراءات والنبوة والأحاديث»<sup>(9)</sup>، كل هذه المؤلفات لم تشفع لهما بالتقارب، فالجاحظ كان مؤلفاً بارعا وهو معلم العلم والأدب، وابن قتيبة أُلّف في علوم القرآن ومشكله، والحديث وغريبه، ومع هذا نجده يتبع الجاحظ في مواضع كثيرة، ويرد عليه. وبين تعارض الاتجاهين عند «الجاحظ بل وفي المعتزلة جميعا جسارة عقلية، وهذا ما لا يرتاح إليه كثيرا ابن قتيبة السني المحافظ، ولا ننسى أنه كان بين أهل السنة والمعتزلة خصومة فكرية، وسياسية أيضاً»<sup>(10)</sup>.

رغم ذبوع صيت الجاحظ الأديب والبلاغي والموسوعي، إلا أن هذا لم يشفع له عند ابن قتيبة، بل طاله مقص النقد كثيراً، وردّ عليه في قضايا عقدية كثيرة، مثل قضية القول بخلق القرآن، ومعاداة أهل الحديث، وهي أسباب جعلت ابن قتيبة القاضي والفقير لا يتسامح مع أبي عثمان، ولكنّه «كان يأخذ عنه بعض المعارف العامة خاصة ما اتصل منها بالأدب»<sup>(11)</sup>، فانقطاعهما وجفاؤهما عقدياً لا يعني القطيعة بينهما كلياً، بل هذا التنافر كان لا يخرج عن الطابع الأخلاقي، ولم يكن يخرج عن حقل الأدب عموماً.

### 5.2. ابن قتيبة والجاحظ/ تواصل:

وفي نفس السياق نجد البغدادي وابن قتيبة يرفضون الموضوعات التي استحدثتها أبو عثمان في النثر العربي، وهي نظرة تلتبس تغليب الجانب العملي للأدب، وهؤلاء الأدباء يمثلون الطبقة التي كانت ضد بلاغة الجاحظ المستحدثة التي حملت بين طياتها الجد والهزل وغيرها مما سيأتي الكلام عليه.

وعن سحر البيان الذي تميّز به الجاحظ، نجد ابن قتيبة يعترف ببيان الجاحظ، وبرونقه البلاغي في بحر مؤلفاته، فكلاهما -الجاحظ وابن قتيبة- ينافح عن الدين، فسحر البيان عند ابن قتيبة شيء مهم ونبيل، يستطيع استمالة القلوب واستعمال القدرة البلاغية في ما يصبو إليه، والرد على الطاعنين في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. والغرض الرئيس عند ابن قتيبة من البلاغة هو تمكين المتكلم والقدرة على الاحتجاج للرأي وإثباته بالحجج والبراهين، ومناظرة المجادل والقضاء عليه، فالبلاغة هي سلاح الخطباء وسيف أهل المنابر، «وقد اختار المؤلف مقامين فرعيين هما: مقام الإيجاز ومقام الإطناب لتفسير هذا المفهوم، يقول لكل مقام مقال»<sup>(12)</sup>، فالإيجاز يصلح لجميع أوضاع التخاطب التي يستعملها المتكلم للتهديد والوعيد كما هو حاصل في رسالة يزيد بن الوليد إلى مروان.

### 5.3. الجاحظ وابن قتيبة/ تقاطع:

إنّ هجوم ابن قتيبة على الجاحظ كان بسبب اعتزال هذا الأخير، وهجومه كان مقصوداً على الجاحظ، «مقصوداً على الناحية المذهبية دون سواها»<sup>(13)</sup>، فابن قتيبة لم يكن لهادن أحداً في العقيدة مهما بلغ كعبه في الفكر والأدب، ولكن مروياته التي نقلها من مؤلفات الجاحظ لا تحصى ولا تعد في الأدب.

إنّ البلاغة التي أنتجها المعتزلة في تلك الحقبة تدور في فلك العقل في تقدير الأشياء وفهم العقيدة، وتفسير الكون، وبنيت أيضاً على أصل كبير هو الشك، «ولذلك فإن الشك



أساس هذه الثقافة العربية»<sup>(14)</sup>، فقد كان الشك منهجا عندهم للمعرفة والتحقيق في الأحكام لتأصيل القضايا التي يبحثون فيها، فمنه ينطلقون وإليه ينتهون.

### 5.4. البلاغة بين النظرة الأخلاقية والاستجابة الجمالية:

كان لابن قتيبة الكثير من الكلام حول بلاغة الجاحظ، ومنطلقه في هذا تلك القضايا التي خاض فيها، كتعلم السرقة وأدب الكُدية والدعارة واللواط، وهي موضوعات جنت على الجاحظ نفسه، وهي أفعال شنيعة -كما يرى ابن قتيبة- تمثلت في قول الكلام الفاحش والإباحية والمجون، وهي مواضيع خاض فيها الجاحظ دون تحفظ، وكانت سببا في نصب العداء له، والظاهر أن ابن قتيبة قام بمحاكمة البلاغة التي أفرزتها نصوص أبي عثمان استنادا على معيار ديني وأخلاقي، ويشهد لذلك ما قاله في هذا البيت:

**فلا تكُتُبْ بخطك غير شيء يسرُّك في القيامة أن تراه<sup>(15)</sup>**

في هذا البيت نجد ابن قتيبة ممارساً مقص الرقيب منتقدا الجاحظ، محاولا تقويم نصوص الجاحظ بمنظور ديني أخلاقي بحت، ويرى في بلاغة الجاحظ فتنة تقوّض الأخلاق وتهدد مبادئ الدين، ولهذا لم يحفل بما جاءت عليه نصوص الجاحظ النثرية من جماليات، وبهذا الحكم يكون ابن قتيبة قد حدّد، «ملامح الأفق البلاغي الجديد الذي رسمه الجاحظ وبذلك أسهم في تحديد الأفق البلاغي والجمالي الذي قام بمخالفته»<sup>(16)</sup> عدة مرات في مؤلفاته المختلفة، وهوّ منها وهذا في ردوده على أبي عثمان.

كانت الصلة وثيقة بين البلاغة والإيديولوجيا، لأنّ البلاغة بمفهومها العام هي الإبلاغ والإبانة، وهي استمالة المتلقين وإقناع المخاطبين، «وهي سياسة البلاغة التي هي أصعب من البلاغة فيما يروي الجاحظ عن سهل بن هارون، ولذلك الصلة تنعقد وثيقة بين الإيديولوجيا والبلاغة، إذ الإيديولوجيا في المطلق ليست سوى مجال من مجالي البلاغة»<sup>(17)</sup>، وهنا يظهر التداخل بين البلاغة والإيديولوجيا أو النزعة الدينية والمحرك الأخلاقي لدى الناقد، والجاحظ وابن قتيبة جمعتهما البلاغة وفرقتهما الإيديولوجيا في النهاية، والإيديولوجيا هي المحرك الرئيس للمتلقّي والباث، وهي كما قررها بول ريكور Paul Ricœur والذي حصر أهم الخصائص المميزة للإيديولوجيا<sup>(18)</sup>.

وفي اقتران الجد بالهزل أو المزج بين السامي والوضيع في سياق واحد، نجد ابن قتيبة يعيب على الجاحظ ابتداءه «بقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتبعه قال الجمّاز، وقال إسماعيل بن غزوان كذا وكذا، من الفواحش ولا يتنزّه عن الاستهزاء بمقام نبينا في

كتاباتة»<sup>(19)</sup>، وهي مؤاخذات نتلمس فيها محاولة تقويم ابن قتيبة للجاحظ في طريقة الكتابة، وهي وضع أسماء الساميين مع الوضيعين، وهي تدور في فلك المخالفات الشرعية التي حاول ابن قتيبة الرد عليه من خلالها.

اعتمد الجاحظ بلاغة غير تقليدية، استبدلها بالموضوعات الهزلية ومزجها بالجد والهزل، وهي رسالة من الجاحظ إلى متلقين مختلفين، ولم يحصرها في صنف واحد، أو جنس معين، هذه البلاغة التي رفضها ابن قتيبة وعبد القاهر البغدادي حضرت في كتاب (حيل اللصوص) وكتابه (غش الصناعات) وكتابه في (النواميس)<sup>(20)</sup>.

وغير بعيد عن القضايا النقدية وبالضبط نجد قضية اللفظ والمعنى فصلّ فيها الجاحظ إذ يقول: «ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسّم أقدار المعاني على أقدار المقامات»<sup>(21)</sup>، فموقف الجاحظ كان وسطيا بين الألفاظ والمعاني، بالرغم من اهتمامه باللفظ وهو القائل **إنما الشأن كل الشأن في الألفاظ**، ورأي ابن قتيبة لا يخرج عن رأي الجاحظ بحيث يكون المعنى جيدا عند توفر شروط؛ إذ يطابق المقام الذي قيلت فيه.

وهو ما يذهب إليه كذلك لسان الدين ابن الخطيب في وسطيته، فالأفضلية لكليهما بحيث يكملان بعضهم البعض في قضية اللفظ والمعنى، ولذا نجد محمد مسعود جبران يقول: «وإنما تتجلى الأدبية عنده كأديب ذواقة في تواشج اللفظ والمعنى، واكتمال الواحد منهما بالآخر»<sup>(22)</sup>، وهؤلاء الثلاثة يلتقون كلهم في التوفيق بين الألفاظ والمعاني عموما.

### 5.5. تبني ابن قتيبة لبلاغة الجاحظ:

بالرغم من انتقاداته المستمرة للجاحظ، إلا أنه يُهيب به، وقد أنصف ابن قتيبة الجاحظ كثيرا تلميحا أو تصريحًا، هذا ما يؤكد حمادي صمود في كتابه (التفكير البلاغي عند العرب) فقد تناول فيه قراءة ابن قتيبة للجاحظ وعقد له مبحثا مهما، حيث يقول: «ولم يستطع ابن قتيبة خصيم الجاحظ من وجهة عقائدية، ورغم فورات الغضب التي تنتابه وهو يستعرض بعض آرائه، أن يفلت من تسلط كثير من آرائه اللغوية والبيانية عليه وإن كان لا يبلغ في تفسيرها وتعليلها عمق الجاحظ ودقة نظره، رغم توسعه في استعراض التفاصيل بكيفية لم نلحظها عند سلفه»<sup>(23)</sup>، فابن قتيبة يعترف للجاحظ بالتفوق والعمق ودقة النظر.

والناظر في آثار ابن قتيبة يجده يشرح الكثير مما أثار الجاحظ، خاصة في (البيان والتبيين)، من ألوان ومسائل بلاغية، «فقد ذكر في قوله تعالى للسماء والأرض ﴿أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت، 11)، إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَقُلْ وَأَنَّ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ لَمْ تَقُولَا، وكيف يخاطب معدوماً؟ وإنما هذا عبارة: لكونهما فكانتا، كما قال الشاعر المثقب العبدى حكاية عن ناقته:

تقولُ إذ درأت لها وضيبي      أهذا دينه أبدأ وديني  
أكلُ الدهرِ حلٌّ وارتحالٌ      أما يُبقي عليّ وما يَقيني؟

وهي لم تقل شيئاً من هذا، ولكنه رآها في حال من الجهد والكلال، ففضى عليها بأنها لو كانت ممن تقول مثل الذي ذكر، وكقول الآخر: «شكا إلى جملي طول السرى»، والجمل لم يشك، ولكنه خبر عن كثرة أسفاره وإتباعه جملة، وقضى على الجمل بأنه لو كان متكلماً لاشتكى ما به، وكقول عنتره في فرسه:

فازورٌ من وقع القنا بلبانه      وشكا إلى بعيرةٍ وتحمحم<sup>(24)</sup>

لما كان الذي أصابه يشتكى مثله ويستعبر منه، جعله مشتكياً مستعبراً، وليس هناك شكوى ولا عبرة<sup>(25)</sup>.

وفي قراءته المعاكسة لبلاغة الجاحظ، نجد ابن قتيبة في موضع آخر يُعلي من شأن المعاني كرد فعل على الجاحظ، الذي يرى بأفضلية الألفاظ من حيث بلاغة الكلام، وهذا واضح جلي في كتابه (الشعر والشعراء) فرفع من شأن المعاني على حساب الألفاظ، «ومن يمعن النظر في عبارته يجد أنه نظر إلى الجاحظ على أنه يقدم اللفظ على المعنى من حيث بلاغة الكلام، فأراد أن يرد على مذهبه، فجعل للمعنى مزيتة في البلاغة»<sup>(26)</sup>، وعلى هذا الأساس يرى أن الكلام لا يخرج عن ما حسن لفظه ومعناه، وما حسن معناه دون معناه، وما حسن معناه دون لفظه، وما ساء لفظاً ومعنى.

ثم أورد أبياتاً من الشعر الذي حسن لفظه، ولا تجد فيها معاني كبيرة، حيث يقول:

وشدّت على حُذْبِ المَهَارِي رَحَالِنَا      ولم يُنظَرُ العَادِي الذي هُوَ رَائِحُ  
أَحَدُنَا بِأَطْرَافِ الأَحَادِيثِ بَيِّنَاتِنَا      وَسَأَلْتُ بِأَعْتَاقِ المِطِيِّ الأَبَاطِحِ\*

يقول ابن قتيبة في (الشعر والشعراء) تعقيبا على هذه الأبيات: «هذه الألفاظ كما ترى، أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع، وإن نظرت (إلى) ما تحتها من المعنى وجدته: ولما

قطعنا أيام مئى واستلمنا الأركان، وعالينا إبلنا الأنضاء، ومضى الناس لا ينتظر الغادي  
الرائح، ابتدأنا في الحديث، وسارت المطي في الأبطح»<sup>(27)</sup>، ثم يضيف أبياتا من قول المعلوط:

إنّ الذين غدوا بلُّك غادروا وشلاً بعينيك ما يزال معيناً  
غَيَضن من عبراتهمْ وَقُلنْ لي ماذا لقيت من الهوى ولقيناً  
ويضيف أيضا قول جرير<sup>(28)</sup>:

يا أخت ناجية السّلام عليكمْ قبل الرحيل وقبل نوم العُدل  
لو كنتُ أعلم أنّ آخر عهدكم يومُ الرحيل فعلتُ ما لم أفعل

ثم نرى ابن قتيبة يسير وفق طريقة الجاحظ في التقرب أكثر من القارئ  
واستعطافه، وها هو يقول: «ولم أخله من نادرة طريفة، وفطنة لطيفة، وكلمة معجبة،  
وأخرى مضحكة، لأروح بذلك عن القارئ من كد الجد وأتعاب الحق، فإن الأذن مجاجة،  
وللنفس حمضة، والمزج إذا كان حقا أو مقاربا، ولأحايينه وأوقاته، وأسباب أوجبهته مشاكلا  
ليس من القبيح ولا من المنكر ولا من الكبائر ولا من الصغائر إن شاء الله وسينتهي بك  
كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة»<sup>(29)</sup>، وهنا نستطيع القول مهما اختلفا عقدياً ومذهبياً،  
إلا أنه سرعان ما يزول هذا الافتراق ويلتقيا في مملكة البلاغة ذات الأرض الخصبة. وكأنهما  
وجهان لعملة واحدة ألا وهي البلاغة والبيان.

وكانصاف للجاحظ نورد كلاماً لإبراهيم عوض الذي يقول: «أما دفاع الجاحظ  
عن الشيء ونقيضه فهو لون من الترف الفكري والحساسية العقلية التي ترى الجوانب  
المختلفة للأمور، وطبيعة الحياة أنه ما من شيء إلا ويمكن النظر إليه من زوايا متعددة،  
وقلما يوجد شيء كله خير فلا شرّ فيه، أو كله شر فلا خير فيه»<sup>(30)</sup>.

#### خاتمة:

في نهاية هذا البحث الذي كان يروم كشف المضمرات بين الرجلين ويكشف كذلك  
قراءة ابن قتيبة لبلاغة الجاحظ، وبعد التساؤلات التي طرحناها مبدئياً كانت تنتظر منا  
إجابات حاولنا الإجابة عليها في هذا البحث وقد استخلصناها في النقاط التالية:

- رفض ابن قتيبة لطريقة الجاحظ في مؤلفاته لدواعٍ ثقافية تتصل بالصراع  
الفكري، والعقدي الذي كان محتتماً وكبيراً بين المتكلمين وأهل السنة.
- تعصب ابن قتيبة للعروبة والإسلام.
- قراءة ابن قتيبة لبلاغة الجاحظ أثرت في القراءات التي أتت بعده.

### المصادر والمراجع:

1. عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تأويل مختلف الحديث والرد على من يريب في الأخبار المدعى عليها التناقض، تحقيق: سليم الهلالي، دار ابن القيم السعودية- دار ابن عفان مصر، ط: 02، 1430هـ- 2009م.
2. ابن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف،
3. السعودية، 1465هـ- 2004م، 392 / 17.
4. عيسى علي العاكوب، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، ط: 09، 1433هـ- 2012م.
5. فوزي عطوي، الجاحظ دائرة معارف عصره، دار الفكر العربي بيروت، ط: 02، 1998.
6. شوقي علي زهرة، في المفهوم البلاغي عند الجاحظ قراءة إبداعية جديدة، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط: 01، 2016.
7. جابر عصفور، قراءة في التراث النقدي، دار سعاد الصباح، ط: 1، 1992.
8. البلاغة والسرد جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، منشورات كلية الآداب، المغرب، 2010.
9. محمد عبد البشير مسالتي، خطاب البلاغة الأنساق المتصارعة وجدل التأويل بحث في مسارات تلقي الخطاب البلاغي الجاحظي في النقد الحدائثي، مركز الكتاب الأكاديمي، الأردن، ط: 01، 2019.
10. إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق للنشر والتوزيع، الطبعة العربية الأولى، الإصدار الثالث، 2001.
11. طه حسين، في الشعر الجاهلي، تقديم ودراسة وتحليل: سامح كريم، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط: 3، 1436هـ- 2015م.
12. محمد مشبال، البلاغة والسرد جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، منشورات كلية الآداب، المغرب، 2010.
13. بول ريكور، من النص إلى الفعل، أبحاث التأويل، تر: محمد برادة، حسان بورقية، دار الأمان، الرياض، ط: 1، 2004.

14. الفرق بين الفرق، المطبعة المصرية، بيروت، سنة 1990.
15. الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط: 07، 1418هـ- 1998م .
16. محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين ابن الخطيب (المضامين والخصائص الأسلوبية)، دار المدار الثقافية، الجزائر، ط: 01، 2009.
17. حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، مشروع قراءة، دار الكتاب الجديدة، المتحدة، ط: 03، 2010.
18. فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين.
19. ابن قتيبة، عيون الأخبار، المكتب الإسلامي بيروت، تحقيق: منذر محمد سعيد أبو شعر، ط: 01، 1429- 2008.
20. - ابراهيم عوض، مع الجاحظ في رسالة (الرد على النصارى)، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، (ب ت).

### مقالات:

1. مصطفى الغرافي في البلاغة والإيديولوجيا: تحكّم الفكر والعقيدة الدينية أو السياسية في إنتاج الخطاب، مقال منشور في: القدس العربي، الأحد، 2020/12/13، <https://www.alquds.co>.

### الهوامش والاحالات

- <sup>1</sup> - عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تأويل مختلف الحديث والرد على من يريب في الأخبار المدعى عليها التناقض، تحقيق: سليم الهلالي، دار ابن القيم السعودية- دار ابن عفان مصر، ط: 02، 1430هـ- 2009م، ص: 17.
- <sup>2</sup> - ابن تيمية، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، السعودية، 1465هـ- 2004م، 392 / 17.
- <sup>3</sup> - عيسى علي العاكوب، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر، ط: 09، 1433هـ- 2012م، بتصرف: ص: 137.

- <sup>4</sup>- فوزي عطوي، الجاحظ دائرة معارف عصره، دار الفكر العربي بيروت، ط: 02، 1998، ص: 05.
- <sup>5</sup>- شوقي علي زهرة، في المفهوم البلاغي عند الجاحظ قراءة إبداعية جديدة، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط: 01، 2016، ص: 19.
- جابر عصفور، قراءة في التراث النقدي، دار سعاد الصباح، ط: 1، 1992، ص: 58.<sup>6</sup>
- <sup>7</sup>- البلاغة والسرد جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، منشورات كلية الآداب، المغرب، 2010، ص: 102.
- <sup>8</sup>- مصطفى الغرافي في البلاغة والإيديولوجيا: تحكّم الفكر والعقيدة الدينية أو السياسية في إنتاج الخطاب، مقال منشور في: القدس العربي، الأحد، 2020/12/13، <https://www.alquds.co>
- محمد عبد البشير مسالتي، خطاب البلاغة الأنساق المتصارعة وجدل التأويل، ص: 79.<sup>9</sup>
- إبراهيم عوض، مع الجاحظ في رسالة (الرد على النصارى)، ص: 10.<sup>10</sup>
- <sup>11</sup>- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، هامش 3، ص: 15.
- <sup>12</sup>- مصطفى الغرافي، البلاغة والإيديولوجيا دراسة في الخطاب النثري عند ابن قتيبة، ص: 75.
- <sup>13</sup>- إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق للنشر والتوزيع، الطبعة العربية الأولى، الإصدار الثالث، 2001، ص: 94.
- <sup>14</sup>- طه حسين، في الشعر الجاهلي، تقديم ودراسة وتحليل: سامح كريم، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط: 3، 1436هـ- 2015م، ص: 20.
- طه حسين، في الشعر الجاهلي، ص: 57.<sup>15</sup>
- <sup>16</sup>- محمد مشبال، البلاغة والسرد جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، منشورات كلية الآداب، المغرب، 2010، ص: 102.
- <sup>17</sup>- الجاحظ، البيان والتبيين، ج: 01، ص: 134.
- <sup>18</sup>- بول ريكور، من النص الى الفعل، أبحاث التأويل، تر: محمد برادة، حسان بورقية، دار الأمان، الرياض، ط: 1، 2004، ص: 211-214.
- ينظر: ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، ص: 103.<sup>19</sup>
- <sup>20</sup>- ينظر: الفرق بين الفرق، المطبعة المصرية، بيروت، سنة 1990، ص: 177.
- <sup>21</sup>- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط: 07، 1418هـ- 1998م، ج: 01، ص: 139.

- <sup>22</sup>- محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين ابن الخطيب (المضامين والخصائص الأسلوبية)، دار المدار الثقافي، الجزائر، ط: 01، 2009، ج: 01، ص: 407.
- <sup>23</sup>- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، مشروع قراءة، دار الكتاب الجديدة، المتحدة، ط: 03، 2010، ص: 17.
- إزور: مال، التعميم: صوت متقطع، اللبان: الصدر.<sup>24</sup>
- ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 79.<sup>25</sup>
- فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين، ص: 273.<sup>26</sup>
- أبيات قيل لكثير عزة، من قصيدة من (الطويل)، وقيل: الأبيات لابن الطثرية.\*  
المرجع نفسه، ص: 67.<sup>27</sup>
- من قصيدة للفرزدق في ديوانه، 442-448.<sup>28</sup>
- <sup>29</sup>- ابن قتيبة، عيون الأخبار، المكتب الإسلامي بيروت، تحقيق: منذر محمد سعيد أبو شعر، ط: 01، 1429-2008، ص: 05.
- <sup>30</sup>- ابراهيم عوض، مع الجاحظ في رسالة (الرد على النصارى)، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، (ب ت).